فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كروسيبوس (١)

١ — ﴿ شخصيته ﴾ هو تلميذ « كليانتس » وآخر ممثلي الرواقية القديمة وأبعدهم أثراً وأكثرهم انتاجاً عقليًّا . ذكر ديوجانس اللايرسي أن القدماء كانوا يقولون : « لولا كروسيبوس لما أمكن أن تقوم لمدرسة الرواق قائمة » بعد اضمحلالها في عهد « كليانتس »(٢)

ولد كروسيبوس حوالي سنة ٢٧٧ ق.م في مدينة «صول» بجزيرة قبرص . وكانت قبرص في ذلك الحين مسرحاً للمنازعات السياسية بين البطالسة حكام مصر من جهة وبين دمتريوس والطيغوناس من جهة أخرى . واذن كانت جزيرة قبرص بلاداً قد قضي فيها على التقاليد القومية وحل فيها تقلب الحكام والسادة الفاتحين دون ازدهار الشعور بحب الوطن(٣) فلم يكن من العسير على كروسيبوس وقد نشأ في بلاد كهذه أن يجعل المثل الاعلى في الأخلاق فكرة الجامعية العقلية الروحية التي تنادي بأن الفيلسوف لا وطن له أو ان وطنه هو الكون بأسره

وكان لكروسيبوس قوة على الجدل عظيمة حتى قيل في عصره « لو كان بالآلهة حاجة الى فن الجدل لاتخذوا جدل كروسيبوس » . ولقد كان كروسيبوس نفسه — فيما يروى — يقول لأساتذته انه ليس بحاجة الى شيء أكثر من تقرير المسألة وهو كفيل بأن يجد من نفسه البرهان عليها(٤) ولقد عاب عليه بعضهم مرة انه لم يجار الجمهور في الذهاب الى استماع

---

(١) يذكره القفطي باسم « كرسفس » (أخبار الحكماء طبع مصر ١٣٢٦ ص ١٧١) والشهرستاني باسم « خروسيس » (الملل والنحل طبع مصر) بهامش الفصل لابن حزم (ج ٣ ص ٩٩)

(٢) Diogène Laerce, Vie des Philosophes VII, 183.

(٣) Bréhier, Chrysippe, p. 8

(٤) Diogène Laerce, VII, 179

دروس « ارسطون » فأجاب « لو انني كنت تابعت الجمهور لما درست الفلسفة[1] » وهذا دليل على مبلغ ما صبغ عليه من الاعتداد بالنفس وقلة التواضع

٢ — ﴿ أساتذته ﴾ تتلمذ كروسبوس لكيانتس في الرواق . ويروي « سطيون » الاسكندري أن « كروسبوس » كان يختلف الى الاكاديمية المنافسة للرواقية . وكان يحضر الدروس التي كان يلقيها « ارقيزيلاس » و « لاقيدس » ويقول « ديوجانس اللايرسي » ان هذا يفسر لنا كيف ان « كروسبوس » كتب رسالة في مناقب « العادة » وفي مساوئها كما يفسر استعماله منهج الاكاديمية في الكلام على الجحوم والاعداد[2] . ويذكر « شيشرون » شيئاً عن مضمون رسالة « كروسبوس » هذه التي جمع فيها طائفة من أقوال الاكاديميين وحججهم في نقض معيار الحقيقة . ويضيف أن « قرنيادس » — وهو من أنصار الاكاديمية الجديدة — لم يكن محتاجاً الى أن يخترع حججاً جديدة لهدم معيار الحقيقة بل كان يكتفي بما أورده « كروسبوس » في رسالته المتقدمة الذكر[3]

لكن فيما أورده « سطيون » عن اختلاف كروسبوس الى الاكاديمية ما يدعو الى الظن أن تلك القصة ليست الاَّ افتراضاً محضاً قصد منهُ أن يفسر لنا وجود نظريات اكاديمية مبسوطة في مؤلفات كروسبوس . ولعل هذا يدل على رغبة كروسبوس في أن يقف تمام الوقوف على حجج خصومه وعلى تحريه الدقة في العلم بآرائهم[4]

٣ — ﴿ تعليمه ﴾ ويظهر ان كروسبوس جعل من التعليم شغله الشاغل حين تولى الاشراف على الرواق . فقد أجمع رواة الأخبار على انه كان يُعنى على الدوام بحسن ادارة المدرسة وانتظام سيرها وعلى انه كان من الاساتذة المجتهدين يؤدي مهمته كل يوم بهمة لا تعرف الملل[5] والذي ورد في الفهرست الهرقيولاني من انتظام ساعات دروسه قد يذكّر بالموعد المضبوط الذي كان يخرج فيه الفيلسوف الالماني « كانت » كل يوم طلباً للرياضة

كان زينون صديقاً لانطيغوناس ملك مقدونيا كما ذكرنا واتصل « سفيروس » الرواقي بالملك « كليومين » ثم ببلاط الملك « فيلوباطر » بالاسكندرية[6] لكن كروسبوس لم يتصل بأحد من هذا القبيل . ويسعنا أن نقرر مع « ديوجانس اللايرسي » أنهُ وحده خالف العادة

---

(١) Diogène Laerce, VII, 183-184 (٢) Diogène Laerce, VII, 182 (٣)
Cicéron, Premiers Académiques, II, 87. — Arnim, [illegible] (٤)
(٥) Diogène Laerce, VII, 182 (٦) Bréhier, Chrysippe [illegible]
Diogène Laerce, VII, [illegible]

المتبعة في اهداء الكتب الى الملوك فلم يهد من مصنفاته الكثيرة شيئاً الى ملك أو امير [1]

ولعل أهم طابع في منهج التعليم عند « كروسيبوس » هو انه نظري تقنيني (دجماتيق) فقد كان الناس حتى ذلك العهد يسيرون على التقاليد السفسطائية التي تنحو نحواً عمليًّا صرفاً في التعليم ، فكان هم المدارس أن تلقن الطلاب بواسطة التدريب على الخطابة كيف يمهرون في تأييد الآراء او نقضها على السواء . وذاعت تلك الطريقة في التعليم حتى كادت مدرسة ارسطو نفسها أن تصير شيئاً شبيهاً بمدرسة لتخريج الخطباء [2] واتخذت الاكاديمية منذ « ارقيزيلاس » « منهج جورجياس » « السفسطائي . وهو عبارة عن الكلام في نقض كل رأي يطرح للبحث او تأييد اي رأي كان . وأمثال تلك المناهج في التربية والتعليم تدل على شيء من التشكك وعلى ان الغاية من التعليم عملية صرفة كما اشرنا . لكن « كروسيبوس » وان لم يكن يستنكر كل الاستنكار طريقة عرض الآراء المخالفة ، كان يرى فساد هذا المنهج ما دام الباحث يريد لاقناً عمليًّا بل علماً اخلاقيًّا . ذلك ان معارضة الحق بالرأي الشبيه بالحق قد تزعزعه في النفوس ، وهذا لا يناسب الآمن يريدون التوقف في الحكم . ومن أجل ذلك وجب في عرض آراء مخالفة لآرائنا أن لا نعرضها الا بعد ان نهدم ما يجعلها شبيهة بالحق [3]

٤ — ﴿ كروسيبوس وأقيسته المنطقية ﴾ يذكر ديوجانس اللايرسي أن كروسيبوس كان يصوغ أقيسة منطقية من القبيل الآتي : « ما ليس في المدينة ليس في البيت أيضاً . ولا بئر في المدينة ، اذن لا بئر في المنزل » وقوله « يوجد رأس ما . وذلك الرأس ليس لك . فاذا كان ذلك كذلك فهنالك رأس ليس لك واذن أنت من دون رأس » . ثم قوله « اذا كان شخص في ميغارا فهو ليس في أثينا . ويوجد الآن رجل في ميغارا ، اذن لا يوجد أحد في أثينا » . ومنها قوله « اذا قلت شيئاً مرَّ من شفتيك . وأنت تقول عربة . اذن هنالك عربة تمر من شفتيك » وقوله « اذا لم تكن فقدت شيئاً قط فأنت ما زلت مالكاً اياه . ولكنك لم تفقد قط قرناً . اذن فأنت صاحب قرون [4] » . . . !

ولم يبين لنا ديوجانس اللايرسي ماذا كان قصد « كروسيبوس » من ايراد أمثال هذه الأقيسة العجيبة . ولكن يخيل الينا أن « كروسيبوس » انما أوردها مازحاً ، وانه أراد أن

---

(1) Cicéron, orator, 46 ; Diogène Laerce, VII, 183 (2)

Plutarque, De Stoic. repugn. 10 cité par Baldry, Chrysippe p. 10 (3)

Diogène Laerce, VII, 186 187 (4)

يبين قلة الكفاية في أقيسة المنطق الصوري الارسطاطاليسي وانها يمكن أن تؤدي الى نتائج مضحكة لا تخلو من سخف وان تكن سليمة من حيث الصورة ، وعلى ذلك تكون مراعاة المادة في المنطق واجبة

٥ — ﴿ مصنفات كروسبوس ﴾ كان كروسبوس واسع الاطلاع دائب التأليف أراد أن يشيء في علوم زمانه موسوعة تحل محل الموسوعة الارسطاطاليسية فألف في المنطق والطبيعيات والاخلاقيات . ألف فيما يروى نيفاً وسبعمائة كتاب لم يبق منها إلا شذور قصيرة

أورد ديوجانس اللايرسي فهرساً لكتب كروسبوس [1] فذكر فيه ١١٩ مصنفاً في المنطق — أكثرها مقصورة لا تزيد على فصل واحد — وذكر ١٣ كتاباً في الاخلاق . ولكن الفهرس المنطقي ناقص في أوله، وفي ترتيب مواده اضطراب كبير . فهو لا يوافق تقسيم المنطق عند كروسبوس على نحو ما عرفه ديوقليس الماغنيسي [2] وعلى نحو ما يستفاد من كلام شيشرون [3] ثم ان فهرس الكتب الاخلاقية مضطرب كذلك أشد اضطراب فهو يحوي عدداً كبيراً من المصنفات المنطقية قد دسّت فيه دسّاً . واذن فهذا الفهرس كله ليس مصدره « كروسبوس » بل الظاهر ان واضعهُ أحد القيمين على المكتبات القديمة الذين يجهلون أهم معاني الفلسفة الرواقية [4]

واذا كان فهرس ديوجانس اللايرسي قد خلا من ذكر المصنفات الطبيعية لكروسبوس فان من الكتاب المتأخرين كشيشرون وبلوطرخس من ذكروا من هذا القبيل ١٩ مصنفاً طبيعياً [5]

ومن مصنفات كروسبوس المشهورة في الطبيعيات (ولم يذكرها ديوجانس اللايرسي) رسالة في النفس ورسالة في الآلهة ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في العناية

ومن مصنفات كروسبوس في الاخلاق رسالة في الاهواء [6] ورسالة في الفرق بين الفضائل [7] ورسالة في الجمهورية [8]

---

١) انظر قائمة كتبه الطويلة في : Diogene Laerce, VII, 198-202

٢) Diogene Laerce, VII, 62 (... VII, 57 ٣) ... Brehier, Chrysippe, 22, 133

٤) Brehier, Chrysippe, 30 ٥) Brehier, Chrysippe, ... 20-22

٦) Diogene Laerce, VII, 2 ٧) Brehier, Chrysippe, 50-51

٨) Brehier, Chrysippe, 50-51

٦ — ﴿ نظريات كروسيبوس الخاصة ﴾ : روى بلوطرخس أن كروسيبوس بسط نظرية المعاني السابقة ونظرية المعاني الشائعة بسطاً وافياً ورتبها ترتيباً واضحاً وقال شيشرون إن كروسيبوس هو صاحب النظرية التي يفرق فيها بين العلل الاولى والعلل الثانية ليوفق بين نظرية القضاء والقدر وبين فكرة المسؤولية والحرية الاخلاقية ؛ فقال ان القضاء المحتوم انما ينصب على العلل الثانية . اما ميولنسا وهي العلل الاولى فهي في مقدورنا ونحن أحرار في توجيهها (١)

ولكن عيب على كروسيبوس اسرافه في نظرية الرواق عن الاشياء « السواء » أعني الاشياء التي ليست خيراً ولا شراً كالحياة واللذة والارتزاق

وأخذ على كروسيبوس كذلك انهُ أباح في كتابه الجمهورية التزوج من الاقربين كزواج الاب من ابنته والابن من أمه والاخ من أخته . وانه في كتابه العدالة أباح للناس أن يأكلوا لحوم البشر (٢)

وعاب خصوم كروسيبوس عليه، فضلاً عما ذكرناه، ان أسلوبه كان ثقيلاً وان لغته لم تكن مهذبة مختارة وانهُ مثلاً حين فسر قصة « هيرا » و « زيوس » قد تفوّه بألفاظ لا تليق بجلال الآلهة بل هي أولى بأن تصدر من « أولاد الشوارع » كما قال ديوجانس اللايرسي (٣)

والحقيقة ان كروسيبوس كان دائماً مضطراً الى ان يتكلم أو أن يكتب مستعجلاً اما لتوضيح مسألة أو للرد على خصم فلم يستطع في مثل تلك الحال ان يتوخى في أقواله أو في مصنفاته ما كان يتوخاهُ كتّاب ذلك الزمان من رشاقة العبارة وجمال الاسلوب (٤)

٧ — ﴿ مهمة كروسيبوس في الرواق ﴾ حمل كروسيبوس عبء التراث الرواقي فكان عليه أن يضطلع بواجبين : الاول — ان يجمع كلمة الرواقيين بعد أن تفرقوا شيعاً كثيرة لا انسجام بينها ولا خطر لها . والثاني — أن يدفع عن الرواق هجمات الخصوم أو المنافسين . أما الواجب الاول فقد وفق كروسيبوس في ادائه . اذ تولى الرد على « ارسطون » و « هيرلوس » بل « كليانتس » . وكانت ردوده حاسمة فوضع بذلك حداً للمناقشات الطويلة التي كانت سبباً في شقاق الرواقيين على أنفسهم . وأما الخصوم والمنافسون الذين كان عليه أن يواجههم فكثيرون ، أهمهم ينتمون الى مدرستين احداهما الابقورية وهي معاصرة على وجه التقريب للمدرسة الرواقية والثانية هي الاكاديمية الجديدة وهي مدرسة كانت تنتسب الى أفلاطون

---

(١) Cicéron, De fato, 18 : 41 (٢) Diogène Laerce, VII, 188

(٣) Diogène Laerce, VII, 187-188 (٤) Diogène Laerce, VII 180

ولكنها رأت ان تدعو باسمه الى مذهب التشكك . ولنحاول ان نرى الآن ما عسى أن يكون شعور كروسبوس والرواقيين نحو هاتين المدرستين

أما الابيقوريون فلم يكن الرواقيون ينظرون اليهم إلاّ نظرات الازدراء . فالابيقوريون قوم لا ثقافة لهم . يحتقرون الجدل فلا يجيبون على حجج الرواقيين القوية واعتراضاتهم الدقيقة إلاّ بتصريحات فاضحة وتوكيدات عامية من غير دليل . وكثيراً ما كانوا يحاولون الاجابة عن نتائج الاستدلالات المنطقية فيقنعون بقولهم « ليس هذا صحيحاً » . فاذا أراد الرواقيون مثلاً أن يبرهنوا لهم على ان اللذة ليست في عداد الخيرات ورأيتهم يجيبون . « اللذة خير . هذا شيء نحسه كما نحس ان النار تسخن ولا يمكن ان يبرهن عليه »

لكن موقف الرواقيين من شكاك الاكاديمية كان في الحق موقفاً يخالف موقفهم من الابيقوريين . كان لا بد لكروسبوس ان يناقض ادلتهم وان يقارع حججهم بما لا يقل عنها قوة وبراعة . فاضطر ان يحاربهم بمثل أسلحتهم فانتهج في ذلك منطقاً دقيقاً محبوكاً وكان له منه ما أراد . بل انهُ بلغ من المهارة في فنون الجدل والمحاجة واثارة الشكوك ما لا مطمع وراءه

ولكن مذهباً كان مضطرًّا الى الدفاع عن أمره في شتى النواحي كان لا بد له ان يتسع شيئاً فشيئاً وان يزيد وضوحاً . وأكبر الظن ان كروسبوس بقي مخلصاً لآراء زينون في المواضع الاساسية ولم يمنعهُ ذلك من ان يضيف اليها بعض التفاصيل وان يوضح ما كان عنها بحاجة الى ايضاح حتى أصبحت الرواقية بفضل جهوده فلسفة تامة مرتبطة الاجزاء واضحة المعالم . ومن المحقق ان كروسبوس اوضح طائفة من المسائل ظلت غامضة بعد زينون وكليانتس من ذلك مسألة معيار اليقين والمعرفة . وكروسبوس هو يقيناً صاحب الفضل الاكبر في بناء علم النفس الرواقي وهو على الخصوص المنشىء للمنطق الرواقي كله او يكاد . فاذا كان ذلك كذلك فما نظن ان القدماء كانوا مغالين حين قالوا . « لو لم يوجد كروسبوس ما وجد الرواق »[1]

وجملة القول ان كروسبوس دافع عن المذهب الرواقي دفاعاً قويًّا مستمرًّا ولم تشكل عزيمته عن مناصرة المدرسة على كثرة الهجمات التي كانت ترد اليه من كل صوب ، من الابيقوريين ومن الشكاك ومن تلاميذ « زينوقراط » و « استراتون » وغيرهم . ولا شك ان كروسبوس هو الذي دأب على تنظيم الرواقية وبسطها بسطاً ثبتت به دعائمها مدى خمسة قرون ، حتى جاء افلوطين الاسكندري فقوض بفلسفته جميع المذاهب المادية

---

(1) Rodier Etudes, p. 238.